يوحنا ١، ١-١٧

١ أحد الفصح

المسيح قام

"والنور في الظلمة يضيء والظلمة لم تدركه"

نتساءل بحقّ، دائماً، عندما نسمع هذا النصّ الإنجيليّ يوم الفصح، والذي يخلو من أيّ ذكر للفصح أو لقيامة الربّ: أين المعنى الفصحيّ في إنجيل هذا العيد؟

الترانيم كلّها، من جهة ثانية، تشدّد على الفرح بشيء جديد قد حدث، وأنّ سحراً وفجراً فرحَين قد أشرقا: "هلمّوا بنا نشرب مشروباً جديداً...". الفصح بالذات يتبعه أسبوع كامل يسمّى أسبوع التجديدات لأنَّ هناك جديد يجدر بالمسيحيّين أن يعيشوه، ويربحوه، ويبشّروا به، فما هو هذا الجديد؟ بل ما هو إذن معنى العيد؟

النصّ الإنجيليّ يكشف هذا السّر: "النور جاء ليضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركْه". هذه عظمة النور في إنجيل يوحنا. إنّه هو الوجود، والظلمة وَهمٌ غير موجود، لكنّها انتفاء النور. النور إذا سلَّطناه على الظلمة بدَّدها، وإذا ما سقطت عليه الظلمة تبدّدت.

يذكر النصّ نزاع الظلمة أمام غلبة النور. وهذا النور بلغة يوحنا الحبيب ما هو إلاَّ الحياة "والحياة كانت نور الناس". فالنصّ هنا، في النهاية، يكلّمنا عن غلبة الحياة على الموت، إنّه يكلّمنا عن إبادة الموت أمام فيض الحياة، عن إماتة الموت بقيامة المسيح.

تقول الترنيمة: "لنبتكرنّ مدّلجين دلجةً عميقة ولنقربَنَّ للسيّد التسبيح النقيّ عوضَ الطيبِ الزكي، ولنعاين المسيح الذي هو شمس العدل مشرقاً الحياة للكلّ". هذا هو إذن إنجيل انتصار الحياة، أي إنجيل القيامة. المسيحيّة ليست ديناً بقدر ما هي دفق حياة. إنّها وبكلمة أخرى دينُ الحياة. إلهنا إله أحياء وليس إله أموات.

ولكن عن أيّة حياة نتكلّم؟ لو سألنا أحداً عن مفهوم الحياة لديه، أو لو تساءلنا نحن السؤال عينه، لوجدنا أنَّ هناك إجابات عديدة ومختلفة.

الحياة للبعض جاءت من الصدفة، أو هي ظاهرة عرضيّة، أو قوّة كونيّة غاشمة عمياء. لذلك فحياة الإنسان لا تعني أكثر من المحافظة على صحته أو طول عمره.

الحياة، عند فئة أخرى، تعني ما هو حيوي، ويتحرك؛ ما يتجدّد. فالتجدّد علامة وجود حيّ، كلّ شيء فيه يتجدّد أي يبقى، التجدّد هو إذن عنصره وجوهره. فالإنسان حيّ ويبقى حيّاً بأولاده ونسله، أو فيما يترك وراءه فيخلد ذكره. الإنسان يبقى بما يقدِّم من مساهمات واختراعات... يترك أعماله واسمه... وكأنَّ الحياة هي ما يُترك وليس ما يُؤخذ!

وكرّر الوجوديّون أمام واقع الموت الفاضح والمؤلم صرخةَ الأبيقوريّين، ولكن بلغة معاصرة جديدة: "كلوا، اشربوا، اليوم نحيا وغداً نموت". فالحياة، بالنسبة إليهم، تتحقّق بإشباع اللذّات والشهوات والغرائز، وفي أحسن الأحوال يمكن أن تكون الحياة رومانسيّة أي تهتمّ بحب الجمال والفنون والآداب.

لكنَّ حقيقةَ الموت تُمَرمِر كلّ هذه المفاهيم السابقة، وتُظهِرها كحلول لا تخلّص الإنسان وإنّما تُخدِّره، فيبدو وكأنَّ عليه أن يستسلم بالنهاية للفناء والموت.

المسيحيّة وحدها، بناءً على قيامة المسيح، كشفت عن الحياة الحقيقيّة الأبديّة. موت المسيح وقيامته أظهرا أنّ حدود الحياة فعلاً أبعد من موت الجسد. لكن بين المسيحيّين شرقاً وغرباً هناك ثلاثة تيارات فكريّة: الأوّل، يشدّد على روعة الأبديّة، وعندما يقارنها بالحياة الحاضرة يوضح تفاهة الحاضر وتبدّله وفساده وآلامه مقابل أبديّة الآتي وعظمته. ولطالما نطالع كتباً ومؤلّفات مسيحيّة فنستشفّ منها روح الازدراء بالحاضرات أمام الآتيات، وبالفانيات أمام الباقيات. الحياة الحاضرة صفحة سوف تنطوي أمام مصحف الحياة الذي هو الأبديّة. قيمة الحياة الآنيّة تكمن بالفعل في دفع ثمن الحياة الآتية. حياتنا إذن هنا تُفهم ككفّارة لخطايانا، وللغفران، ولدفع ثمن دخولنا إلى الملكوت. لذلك على المسيحيّين أن يتراكضوا وراء المؤسسات الإنسانيّة، والإحسان، والخدمة الاجتماعيّة، وأعمال الرحمة، فهذه كلّها هي أعمال غفران، أو صكوك غفران متنوعة الإصدار.

الاتجاه الثاني، ليس لديه نظرة مغايرة عن المفارقة الكبيرة بين زمن الحياة الحاضرة وبين الآتية. لكنّه يؤمن أنّ الدخول إلى ملكوت الله هو هبة مجانيّة، فإنَّه بالإيمان لا بالأعمال نربح الآتيات. "آمنْ فقط تخلصْ". لذلك الحياة الحاضرة تبلغ غايتها حين تسخَّر في سبيل نشر الإيمان بيسوع المسيح والتعليم والوعظ بالكلمة. نعم هذه مفاهيم عن الحياة، أمَّا مفهومنا نحن فمغاير.

كل ما سبق هو صور في الحياة، خاطئة أحياناً وحقيقيّة أحياناً أُخرى، لكنّها في كلّ الأحوال ليست الحياة التي نقرؤها في الكتاب وبالأخصّ في إنجيل يوحنا. يقول أحد الفلاسفة الوجوديّين: إنَّ الإيمان بآتياتٍ هو أكبر خدعة وجريمة في حقّ الحياة. ونحن موافقون على ردة فعله ونبررها، فهو يتكلّم بلغة أرثوذكسيّة ولو كان هو ذاته يجهل الحياة التي يريد أن يدافع عنها.

الحياة كما يعرِّف عنها الإنجيل هي النور الذي أتى إلى العالم. إنّها الكلمة الذي صار جسداً وهذه الكلمة هي الله. الحياة بكلمة واضحة هي تقبّل هذا النور. والنصّ واضح، إنَّ النور يغلب الظلمة، لكن النور رُفِضَ من خاصته. النور أقوى من الظلمة لكنّ النور لا يُفرض على الخيار البشريّ. الحياة أقوى من الموت لكنّها في حريّة الإنسان. حياة هي إذن أن نشتعل من النور الذي ورد إلى العالم لينير كلّ إنسان آتٍ إليه. حياةٌ هي أن نشترك بالنور وأن نستمد منه حياتنا، لا بل أن نحيا به وإليه. حياةٌ هي خبرة العلاقة الشخصيّة مع يسوع الحياة. من لم يعرف هذه الخبرة في هذه الحياة لن تعوّض له المؤسّسات، ولا الإحسان، ولا النسل، ولا الإيمان، ولا البشارة، ولا الصحّة. حياةٌ هي أن نصرخ كبولس الرسول: "لست أنا أحيا بل المسيح يحيا فيَّ"، و"الربّ حياتي ونوري ومخلّصي".

إذن الحياة لا تبدأ بعد الموت. الحياة تبدأ من لحظة تقبّل النور، الحياة الأبديّة تبدأ من المعموديّة وليس من الوفاة. "والحياة الآتية" صارت حاضرة. إن لم نختبرْ نار الشوق الإلهيّ الآكلة هنا، وإن لم نشاركْ الربّ يسوع حياتنا هنا في زمن الحياة هذا؛ فسوف لن نعرفه ولن نذوق طعم الحياة هناك. حياةٌ هي أن نختبر حرارة الحضرة الإلهيّة في كلّ يوم من أيّامنا. القدّيس سيرافيم ساروف يحدّد هدف حياة

المسيحيّ باقتناء الروح القدس. والقدّيس سلوان الآثوسي يصلّي إلى الله بحرارة: "اجعلْ يا ربّ كلّ الناس يعرفونك"، أي اجعلْ يا ربّ كلّ الناس تحيا، ويحيون بك.

لذلك إن لم يقم المسيح فإيماننا كلّه باطل. لو لم يقم المسيح كيف كنتُ سأشتعل بالنور؟ خبرة الحياة مع منْ كنتُ سأختبرها؟ لهذا نفهم صرخة القدّيس سيرافيم:

"يا فرحي المسيح قام"! حقّاً قام!